عَبد القدِيم زلّوم

كَيْفَ هُدِمَت الخلافَـة

دار الأمة
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الأولى
١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م

دار الأمة
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب. ١٣٥١٩٠
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

﴿ يُرِيـــــــــدُونَ أَنْ يُطْفِئُـــــــوا نُـــــورَ اللهِ بِـــأَفْواهِهِمْ وَيَـــأْبىَ اللهُ إِلاَّ أَنْ يُـتِمَّ نُـورَهُ وَلَـوْ كَـرِهَ الكـافِرُونَ ﴾ ﴿ هُـوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالهُـدَى وَدِيـــنِ الحَـــقّ لِيُظْهِـــرَهُ عَلَـــى الـــدِّينِ كُلِّـــهِ وَلَـــوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾

محتويات الكتاب

آيات الافتتاح
الصراع بين الإسلام والكفر
تآمر الدول الأوروبية على الدولة الإسلامية
نشأة الوهابيين والحكم والسعودي
تآمر الإنجليز ضد الدولة الإسلامية
محاولة فرنسا ضرب الدولة الإسلامية
إثارة النعرات القومية والنزعات الاستقلالية
دور مركز بيروت في العمل ضد الخلافة
دور مركز استانبول في العمل لضرب الخلافة
دور السفارات الأوروبية في تأسيس الجمعيات والأحزاب العربية
الغزو التبشيري والغزو الثقافي
دور مركز مالطة في الغزو التبشيري
انتشار البعثات التبشيرية في بلاد الشام
إثارة الفتن بين أهالي بلاد الشام
محاولة إدخال الأحكام الدستورية الغربية
محاولة مدحت باشا وضع دستور للدولة من النظم الغربية
وقوف عبد الحميد في وجه دستور مدحت
أخذ القوانين الغربي
أثر الفتاوى في إدخال القوانين الغربية
خطأ الفتاوى
مناقضة الديمقراطية للإسلام
الحريات العامة في الديمقراطية تناقض الإسلام
أثر الغزو الثقافي والتشريعي
محاولة تمزيق دولة الخلافة
محاولة الحلفاء استمالة جمال باشا
بروز مصطفى كمال

مصطفى كمال يعمل لانسحاب الدولة من الحرب وعقد صلح مع الإنجليز

تآمر مصطفى كمال على الدولة

تشبث مصطفى كمال بتسلم الحكم

انسحاب مصطفى كمال من سوريا وتركها للإنجليز

استسلام الدولة العثمانية

تمزيق الإنجليز لدولة الخلافة

جعل القومية والوطنية أساساً لعملية التمزيق

تركيز الإنجليز على عاصمة الخلافة لإلغائها

محاولة الإنجليز هدم الخلافة بالأعمال السياسية والقانونية

عمل الإنجليز على إيجاد الفراغ السياسي

الإنجليز يغيّرون الأسلوب السياسي والقانوني

تدابير الإنجليز لاحتلال اليونان أزمير

بدء مصطفى كمال أول خطوة في ثورته ضد الخلافة

دعم إنجلترا ثورة مصطفى كمال

الجولة الأولى في ثورة مصطفى كمال

مسرحية احتلال سمسون

اتخاذ ثورة مصطفى كمال صفة الحرب المسلحة

مؤتمر أرضروم

الإنجليز يمنعون السلطان من إرسال جيش للقضاء على ثورة مصطفى كمال

مؤتمر سيواس

تفاهم مصطفى كمال مع الخليفة استعداداً لجولة أخرى

نجاح مصطفى كمال في جمع الناس حوله على فكرة تحرير البلاد

اتخاذ مصطفى كمال أنقرة مركزاً له

عودة مصطفى كمال إلى الثورة في جولة ثانية

احتلال الإنجليز استانبول

نقمة الناس على السلطان لوقوفه بجانب إجراءات الإنجليز

مصطفى كمال يعلن عن إجراء انتخابات نيابية جديدة
إقامة مصطفى كمال جهاز دولة في أنقرة
السلطان يسيّر حملة عسكرية للقضاء على حكومة أنقرة
إذاعة شروط الصلح بدل الموقف لصالح مصطفى كمال بعد هزيمته
تركّز حكومة أنقرة واتصال الدول بها مباشرة
رئيس وفد السلطان لمؤتمر لندن يتنازل لرئيس وفد أنقرة ليتحدث باسم الوافدين ٠
مصطفى كمال يستعد لتصفية المشكلة مع اليونان بالحرب
اليونان تبادر ببدء الحرب على الأتراك
انسحاب الجيش اليوناني بضغط من الحلفاء رغم انتصاره
الإنجليز يعملون دعاية ضخمة لمصطفى كمال
السياسيون والضباط يحذرون مصطفى كمال من إلغاء الخلافة
فصل السلطنة عن الخلافة
الإنجليز يشترطون إلغاء الخلافة وعلمنة الدولة
الضربة المميتة
القضايا المصيرية وإجراء الحياة أو الموت
القضايا المصيرية في نظر الإسلام
إقامة الخلافة والحكم بما أنزل الله هي قضية المسلمين المصيرية

الصراع بين الإسلام والكفر

منذ أن انبثق فجر الإسلام والصراع العنيف دائر على أشده بين أفكار الإسلام وأفكار الكفر، وبين المسلمين والكفار. وقد بدأ هذا الصراع فكرياً بحتاً حين بُعث الرسول ﷺ ولم يصحبه أي صراع مادي، واستمر كذلك إلى أن قامت الدولة الإسلامية في المدينة ووُجد الجيش ووُجدت القوة. ومنذ ذلك الحين ضم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الصراع الدموي إلى جانب الصراع الفكري، ونزلت آيات الجهاد، واستمر الصراع كذلك، وسيظل على هذه الطريقة - صراع دموي إلى جانب الصراع الفكري - إلى قيام الساعة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ومن هنا كان الكفر عدواً للإسلام، وكان الكفار أعداء المسلمين ما وُجد في الدنيا إسلام وكفر، ومسلمون وكفار، إلى يوم يُبعثون. وهذه حقيقة قطعية ودائمية، فلا بد أن يظل إدراكها واضحاً لدى المسلمين في كل لحظة من لحظات الحياة، ولا بد أن تُتخذ مقياساً من مقاييس العلاقات بين الإسلام والكفر وبين المسلمين والكفار.

وقد استمر الصراع الفكري البحت ثلاثة عشر عاماً متتالية على أشدّ ما يكون من العنف والقسوة، إلى أن انتصرت أفكار الإسلام على أفكار الكفر، وأظهر الله الإسلام. فقامت في المدينة الدولة التي تحمي ذِمارَ المسلمين وبيضةَ الإسلام، وتنشر الهدى بين الناس عن طريق الجهاد فبدأت الحروب بين الإسلام والكفر، وبين جيوش المسلمين وجيوش الكفار في معارك متلاحقة، وفي منتهى الغلظة والشدة. فكان النصر في هذه الحروب كلها للمسلمين. والمسلمون وإن هُزموا في بعض المعارك ولكنهم كانوا يكسبون الحرب، وما خسروا حرباً من الحروب مدة ستة قرون، بل ظلوا منتصرين في جميع الحروب ستة قرون متوالية، وظلت الدولة الإسلامية هي الدولة الأولى في العالم طوال هذه المدة. ولم يقع هذا في

تاريخ الجنس البشري مع غير المسلمين أبداً، ولا حدث مع غير الدولة الإسلامية. ولكن الكفار ولا سيما الدول الأوروبية لم يكونوا غافلين عن الإسلام للبطش به، ولا عن المسلمين لتدمير كيانهم، فكانوا كلما سَنَحت لهم فرصة شنوا هجوماً على المسلمين، أو دبّروا لهم كيداً. وفي أواخر القرن السادس الهجري، (الحادي عشر الميلادي) وأوائل القرن السابع الهجري (الثاني عشر الميلادي) أحسّت دول أوروبا بما آل إليه نظام الحكم في الدولة الإسلامية من تفكك في الولايات عن جسم الدولة، واستقلال الولاة بأهم شؤون الحكم الداخلي من جيش ومالية وسلطان وغير ذلك، حتى كانت أشبه بالاتحاد بين دول منه بالوحدة للدولة الواحدة. ولم يبق للخليفة في بعض الولايات سوى الدعاء له على المنابر، وسكّ النقود باسمه، ومبلغ من المال يرسل من الخراج. أحسّت بذلك دول أوروبا فجردت الحملات الصليبية على المسلمين، وكانت الحرب الصليبية التي استمرت مدة قرن تقريباً. وفي هذه الحرب هُزم المسلمون، واستولى الكفار على بلاد الشام كلها: فلسطين، ولبنان، وسورية، ومكثوا فيها عشرات السنين، حتى إنهم احتفظوا ببعض البلدان كطرابلس الشام مدة مائة عام.

وإنه وإن كانت المعارك بين الصليبيين والمسلمين لم تنقطع طوال مائة عام، ومحاولات المسلمين لاسترداد البلاد التي غلبهم الصليبيون عليها لم تَفْتُر، ولكن هذه الحروب ضعضعت الأمة الإسلامية، وأنزلت مكانة الدولة الإسلامية، وخسر المسلمون الحرب فيها، وهُزموا أمام الكفار، وكان النصر فيها للكفار على المسلمين. وإن كان لم يحصل فيها نصر للكفر على الإسلام لا فكرياً ولا روحياً. وقد أصاب المسلمين منها من الذُّل والانكسار والهوان ما لم يخطر على قلب بشر. ولذلك تعتبر هذه الفترة، فترة الحروب الصليبية، فترةَ هزيمة للمسلمين. فإنهم بالرغم من انتصارهم في النهاية

على الصليبيين وطردهم من بلاد الإسلام لم يستأنفوا السير في الفتوحات، أي لم يستأنفوا الحروب مع الكفار. إذ ما ان انتهت الحروب الصليبية حتى جاء المغول فكانت مذبحة بغداد وكارثة الإسلام فيها، وذلك في سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)، ثم كان سقوط دمشق في أيدي المغول بعد ذلك في نفس السنة، إلى أن كانت معركة عين جالوت في ٣ أيلول سنة ١٢٦٠ ميلادية، ثم كان القضاء على المغول. وعلى أثر القضاء عليهم تحركت مشاعر الجهاد في نفوس المسلمين، وأحسوا باستئناف حمل الدعوة إلى العالم، فبدأت غزوات المسلمين للكفار، وبدأ الجهاد ضد البيزنطيين، وبدأت المعارك، وبدأ تتابع النصر، وكان ذلك في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، واستأنفت الأمة الإسلامية الفتوحات واستمرت الحروب، وتتالت المعارك، وكان النصر فيها دائماً للمسلمين. فإنهم وإن كُسروا في بعض المعارك فقد كانوا يكسبون الحروب وينتصرون فيها، ويفتحون البلدان، وكانت الدولة الإسلامية هي الدولة الأولى في العالم. واستمرت كذلك مدة أربعة قرون أي حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي). أي إلى أن ظهر الانقلاب الصناعي في أوروبا بشكل بارز ومؤثر في قوى الدول، ووقف المسلمون أمامه حيارى، فتغير ميزان القوى في العالم، فبدأت الدولة الإسلامية تنزل عن مرتبة الدولة الأولى في العالم، رُويداً رُويداً، إلى أن أصبحت مطمع الطامعين. فأخذت تجلو عن البلاد التي فتحتها، والبلاد التي كانت خاضعة لسلطانها، وأخذت الدول الكافرة تغتصب منها بلاد الإسلام قطعة قطعة، فبدأ الجزر الإسلامي بعد ذلك المد. وحينئذ بدأت الدول الأوروبية تفكر في إزالة الدولة الإسلامية من الوجود الدولي، وإزالة الإسلام كله من معترك الحياة، ومن العلاقات بين الناس. أي بدأوا يفكرون في حروب صليبية ثانية، ولكن لا

كالحروب الصليبية الأولى غزواً عسكرياً يهزمون به المسلمين ويَدْحَرون الدولة الإسلامية، بل في حرب صليبية أعمق وأفظع، ويقتلعون بها جذور الدولة الإسلامية من أساسها حتى لا يبقى لها أَثَر، ولا يبقى منها جذر واحد ينبت، ويقتلعون الإسلام من نفوس المسلمين حتى لا يبقى منه سوى طقوس كَهنوتيّة، وشعائر روحية.

تآمر الدول الأوروبية
على الدولة الإسلامية

ومع اختلاف الكفار على اقتسام بلاد المسلمين لكنهم اتفقوا على القضاء على الإسلام. وقد سلكوا لذلك عدة طرق. فقد أثاروا في البلدان الأوروبية النعرة القومية، والنزعة الاستقلالية، وحركوا أهل البلاد على الدولة الإسلامية، وأخذوا يمدونهم بالسلاح والمال للثورة عليها. كما حصل في بلاد الصرب واليونان. وحاولوا ضرب الدولة الإسلامية من الخلف، فقامت فرنسا بغزو مصر واحتلالها في تموز سنة ١٧٩٨، ثم زحفت على فلسطين واحتلتها، وأرادت أن تحتل باقي الشام لتضرب الدولة ضربة قاضية. ولكنها هُزمت بعد ذلك، وخرجت من مصر وسلّمت أراضي الدولة.

نشأة الوهابيين والحكم والسعودي

كانت إنجلترا قد حاولت عن طريق عميلها عبدِ العزيز بن محمد بن سُعود ضرب الدولة الإسلامية من الداخل، وكان قد وُجد للوهابيين كيان داخل الدولة الإسلامية بزعامة محمد بن سعود، ثم ابنه عبد العزيز، فأمدَّتهْم إنجلترا بالسلاح والمال، واندفعوا على أساس مذهبي للاستيلاء على البلاد الإسلامية الخاضعة لسلطان الخلافة، أي رفعوا السيف في وجه الخليفة، وقاتلوا الجيش الإسلامي جيش أمير المؤمنين بتحريض من الإنجليز وإمداد منهم. وذلك لأخذ البلاد من

الخليفة وحكمها حسب مذهبهم، وإزالة ما أحدثته المذاهب الإسلامية الأخرى غير مذهبهم بالقوة وحدِّ السيف. فأغاروا على الكويت سنة ١٧٨٨ واحتلوها، ثم واصلوا تقدمهم إلى الشمال حتى حاصروا بغداد، وكانوا يريدون الاستيلاء على كربلاء، وعلى قبر الحسين رضي الله عنه لهدمه ومنع زيارته. ثم في نيسان سنة ١٨٠٣ شنّوا هجوماً على مكة واحتلوها، وفي ربيع سنة ١٨٠٤ سقطت المدينة المنورة في أيديهم، فخربوا القباب الضخمة التي تظلّل قبر الرسول ﷺ، وجرّدوها من جميع النفائس. وبعد أن انتهوا من الاستيلاء على الحجاز كله ساروا نحو الشام، وقاربوا حمص. وفي سنة ١٨١٠ هاجموا دمشق كرّة أخرى كما هاجموا النجف. وقد دافعت دمشق عن نفسها دفاعاً مجيداً. ولكن الوهابيين مع محاصرتهم لدمشق انطلقوا نحو الشمال وبسطوا سلطانهم على أكثر أراضي سورية حتى حلب. وكان معروفاً أن هذه الحملة الوهابية عمل إنجليزي، لأن آل سعود عملاء للإنجليز، وقد استغلوا المذهب الوهابي - **وهو من المذاهب الإسلامية، وصاحبه الإمام محمد بن عبد الوهاب مجتهد من المجتهدين** - استغلوا هذا المذهب في أعمال سياسية لضرب الدولة الإسلامية، والاصطدام مع المذاهب الأخرى، لإثارة حروب مذهبية داخل الدولة العثمانية، دون أن يدرك ذلك أتباع هذا المذهب، ولكن عن إدراك ووعي من الأمير السعودي ومن السعوديين. لأن العلاقة لم تكن بين الإنجليز وصاحب المذهب محمد بن عبد الوهاب، وإنما كانت بين الإنجليز وعبد العزيز بن محمد بن سعود ثم بينهم وبين ابنه سعود.

وذلك أن محمد بن عبد الوهاب الذي كان حنبلي المذهب قد اجتهد في بعض المسائل، ورأى أنّ ما عليه المسلمون من أصحاب المذاهب الأخرى يخالف رأيه في هذه المسائل. فأخذ يدعو لآرائه ويعمل لها، ويهاجم الآراء

الإسلامية الأخرى بعنف. فَجُوبِهَ بالمعارضةِ والصدّ من العلماء والأمراء ووجوه الناس، باعتبار آرائه تخالف ما فهموه من الكتاب والسنة. فمثلاً هو يقول: إن زيارة قبر الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرام وهي معصية من المعاصي، حتى إن من يذهب لزيارة قبر الرسول لا يجوز له أن يقصر الصلاة في سفره لأنه مسافر في معصية. ويستدل على ذلك بقوله ﷺ: **«لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»**. فَيَرى من هذا الحديث أن الرسول نهى أن تُشَدّ الرحال لغير هذه الثلاثة. فإذا شُدَّت لزيارة قبر الرسول فقد شُدّت لغير المساجد الثلاثة، فكانت حراماً، وكانت معصية. ويرَى غيره من المذاهب أن زيارة قبر الرسول ﷺ سُنّةٌ ومندوب يُثابُ فاعلها، لقوله ﷺ: **«كنتُ نَهيتُكم عن زيارة القبور أَلاَ فزُورُوها»**. وقبر الرسول من باب أولى أن تكون زيارته داخلة في هذا الحديث، فضلاً عن وجود أحاديث أخرى يَرْوُونها. ويقولون عن الحديث الذي يَستدل به محمد بن عبد الوهاب: إن الحديث خاص بالمساجد، فموضوعه شدّ الرحال للمساجد، ولا يتعدى موضوعه. فهو ليس عاماً بل هو خاص في موضوع معين: **«لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا لثلاثة مساجد»**؛ فلا يجوز لمسلم أن يذهب لزيارة مسجد أَيا صُوفيا، ولا لزيارة المسجد الأمَوِيّ في دمشق قاصداً المسجد؛ لأن الرسول قد حصر شدّ الرحال للمساجد بثلاثة مساجد ليس غير. فلا يجوز شدّ الرِّحال لمسجد غيرها. فهو خاص بالمساجد. وإلاّ فيجوز شدّ الرِّحال للتجارة، وللزيارة، وللنزهة، وللسياحة، وغير ذلك. فالحديث لا يمنع السفر مطلقاً ويحصره في هذه الثلاثة، وإنما يمنع السفر قصد المساجد إلا لهذه المساجد الثلاثة. وهكذا جميع آرائه يراها غيره من

أصحاب المذاهب أنها آراء خطأ تخالف ما يفهمونه من الكتاب والسنة، وقد اشتد الخصام بينه وبينهم حتى نُفي من البلاد.

وفي سنة ١٧٤٠ التجأ إلى محمد بن سعود شيخ قبيلة عَنْزَة، وكان خصماً لشيخ عُيَيْنَة ويقيم في بلدة الدِّرْعِيّة، وكانت تبعد ست ساعات فحسب عن عُيَيْنَة. وهناك لقي محمد بن عبد الوهاب حفاوةً وترحيباً، وصار يبث آراءَه وأفكارَه بين الناس في الدِّرْعِيّة وما جاورها. وما أن مضت مدة حتى اكتسبت أفكاره وآراؤه هذه أنصاراً ومؤيدين، فمال إليها الأمير محمد بن سعود وأخذ يتقرّب من الشيخ.

وفي سنة ١٧٤٧ أعلن الأمير محمد قبوله لآراء محمد بن عبد الوهاب وأفكاره، وأعلن مناصرته له ولهذه الآراء والأفكار. وبهذا التحالف بدأَت الحركة الوهابية وظهرت للوجود بشكل دعوة وبشكل حُكْم. فقد كان محمد بن عبد الوهاب يدعو لها ويعلِّم الناس أحكامها، وكان محمد بن سعود ينفّذ أحكامها على الناس الذين تحت إمرته وسلطانه.

وأخذت تمتد فيما جاور الدِّرْعِيّة من البلدان والقبائل في الدعوة والحكم، وأخذت إمارة محمد بن سعود تتسع حتى وُفِّق في مدى عشر سنوات إلى أن يخضع لسلطته وللمذهب الجديد رُقْعَةً من الأرض مساحتها نحو من ثلاثين ميلاً مربعاً، ولكنه كان اتّساعاً عن طريق الدعوة وسلطان شيخ عَنْزَة، ولم يعترضه أحد، ولم يخاصمه أحد، حتى إن أمير الإحساء الذي أخرج محمد بن عبد الوهاب من عُيَيْنَة لم يعارض خصمه في هذا التوسع، ولم يحشد قواته لمحاربته إلا في سنة ١٧٥٧، ولكنه هُزم، فاستولى محمد بن سعود على إمارته، وصارت سلطة عَنْزَة أي سلطة محمد بن سعود وسلطة المذهب الجديد تحكم الدِّرْعِيّة وما جاورها وتحكم الإحساء. وكان ينفذ في هذه البلاد المذهب الوهابي بقوة السلطان.

ولكن هذه الحركة بعد الاصطدام مع أمير الإحساء والاستيلاء على بلاده وقفت عند هذا الحد، ولم يعرف عنها أنها توسعت بعد ذلك أو قامت بأي نشاط، بل ظلت محصورة في ذلك المكان، ووقف محمد بن سعود عند هذا الحد، ووقف المذهب الوهابي عند حدود هذه الرقعة ونامت الحركة وركدت.

ثم في سنة ١٧٦٥ توفي محمد بن سعود وخلفه على مَشْيَخَةِ عَنْزَة ابنه عبد العزيز. فقام بعد والده بحكم الرقعة التي تحت يده، ولكنه لم يقم بأي نشاط للحركة، ولا بأي توسع فيما جاوره. فظلت الحركة نائمة، وظل الركود مخيّماً عليها. ولم يعد يُسمع عنها شيء، ولم يعد أحد من جيرانها يذكرها أو يتخوّف من غزوها.

ولكن بعد إحدى وأربعين سنة من بدء الحركة الوهابية، أي من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٨٨، وبعد إحدى وثلاثين سنة من وقوفها وركود حركتها، أي من سنة ١٧٥٧ إلى سنة ١٧٨٧ ظهر نشاطها فجأة، واتخذت طريقة جديدة في نشر المذهب، وسمع ذكرها في الخارج بشكل قوي في جميع أنحاء الدولة الإسلامية، ولدى الدول الكبرى، وصارت تشغل جيرانها وتقلقهم، بل تشغل الدولة الإسلامية كلها وتقلقها.

ففي سنة ١٧٨٧ تحرك عبد العزيز لتأسيس بيت إمارة، وإيجاد نظام وراثة الحكم، أو ما يُسمى بولاية العهد: بأن يُثَبّت ابنه سعوداً خليفة له. فقد اجتمع حشد عظيم من الناس ترأسه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفي هذا الحشد العظيم جعل عبد العزيز حق الإمارة في بيته، وحق خلافته في الإمارة لأولاده، وأعلن تثبيت ابنه سعود خليفة له. فوافقه ذلك الحشد العظيم وعلى رأسهم محمد بن عبد الوهاب وقرروه، وبذلك أسس بيت إمارة لدولة وليس لقبيلة أو قبائل. ويبدو أنه كذلك جعلت الخلافة في المذهب الوهابي في بيت

محمد بن عبد الوهاب. وبعد هذا التثبيت لخلافة الأمير ولخلافة شيخ المذهب نشطت الحركة فجأة في الفتح والتوسع، وصارت تقوم بالحرب لنشر المذهب. فقد قام عبد العزيز في سنة ١٧٨٨ بتجهيز حملة عسكرية ضخمة وهاجم الكويت وفتحها واستولى عليها. وكان الإنجليز يحاولون أخذ الكويت من الدولة العثمانية ولكنهم لم يستطيعوا ذلك. فقد كانت الدول الأخرى مثل ألمانيا وروسيا وفرنسا تقف في وجههم، وكانت دولة الخلافة تقاومهم. فكان فصل الكويت عن الدولة العثمانية ثم التقدم إلى الشمال لحمايتها لافتاً لنظر الدول الكبرى مثل روسيا وألمانيا وفرنسا، ولافتاً نظر الدولة العثمانية. ثم كانت الصفة التي تأخذها هذه الحرب وهي الصفة المذهبية تثير المشاعر الدينية.

وهكذا بدأ الوهابيون نشاطهم فجأة بعد ركود دام عشرات السنين، وبدأوا هذا النشاط بطريقة جديدة هي نشر هذا المذهب عن طريق الحرب والفتح لإزالة معالم المذاهب الأخرى من الوجود، وإقامة مذهبهم مكانها. وافتتحوا هذا النشاط بالهجوم على الكويت والاستيلاء عليها، ثم أخذوا يواصلون هذا النشاط بمحاولات التوسع. وصاروا مدعاة قلق وإزعاج لجيرانهم في جزيرة العرب والعراق والشام، وللدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة، وصاروا يحملون السيف لمقاتلة المسلمين لترك ما يعتنقون من آراء غير المذهب الوهابي، ولاعتناق آراء المذهب الوهابي، ويقاتلون الخليفة ويفتتحون البلدان الإسلامية. ثم في سنة ١٧٩٢ توفي محمد بن عبد الوهاب، فخلفه ابنه في منصبه في الدولة بالنسبة للمذهب الوهابي تماماً كما خلف سعود أباه عبد العزيز. وهكذا سار الأمراء السعوديون متخذين المذهب الوهابي أداةً سياسية لضرب الدولة العثمانية دولة الخلافة، وإثارة حروب مذهبية بين المسلمين.

تآمر الإنجليز ضد الدولة الإسلامية

وكانت عمولة آل سعود للإنجليز وولاؤهم لهم أمراً معروفاً لدى دولة الخلافة ولدى الدول الأخرى كألمانيا وفرنسا وروسيا، وكان معروفاً أنهم يُسيَّرون من قِبَل الإنجليز، وكان الإنجليز أنفسهم لا يُخْفُون وقوفهم إلى جانب السعوديين دَوْلياً، أضف إلى ذلك الأسلحة الكثيرة والعتاد الكبير الذي وصل إليهم عن طريق الهند، والأموال التي تحتاج إليها الحرب ويحتاج إليها تجهيز الجيوش لم تكن إلاّ أسلحة الإنجليز وأموالهم، ولهذا فإن الدول الأوروبية ولا سيما فرنسا كانت ضد حملة الوهابيين هذه باعتبارها حملة إنجليزية. وقد حاولت دولة الخلافة ضرب الوهابيين فلم تستطع صدّهم، وعجز ولاتها في المدينة وبغداد ودمشق أن يقفوا في وجههم، فطلبت إلى واليها في مصر محمد علي أن يُجرِّد جيشاً عليهم، فَتَلكَّأ في أولِ الأمر. ولكنه وقد كان عميلاً لفرنسا، لأنها هي التي ساعدته في قيامه بالانقلاب في مصر واستيلائه على الحكم، ثم حملت الخلافة على الاعتراف به، فإنه بناءً على موافقة فرنسا وتحريضها لبَّى أمر السلطان سنة ١٨١١، فأرسل ابنه طوسون لمحاربتهم، ودارت معارك عديدة بينهم وبين جيش مصر، وتمكن جيش مصر سنة ١٨١٢ من فتح المدينة. ثم في آب سنة ١٨١٦ أرسل ابنه إبراهيم من القاهرة فَسحَقَ الوهابيين سَحْقاً حتى تراجعوا إلى عاصمتهم الدِّرْعِيّة وتحصنوا فيها، فحاصرهم إبراهيم في نيسان سنة ١٨١٨ طوال الصيف. وفي ٩ أيلول سنة ١٨١٨ استسلم الوهابيون، ودَكّت جيوش إبراهيم الدِّرْعِيّة دَكاً، حتى يقال: إنه حرثها بالمحراث حتى لا يبقى لها أثر. وبذلك انتهت محاولة الإنجليز.

محاولة فرنسا ضرب الدولة الإسلامية

ثم حاولت فرنسا ضرب الدولة الإسلامية من الخلف بواسطة عميلها محمد علي والي مصر، فقد سندته دولياً وسياسياً بشكل مكشوف، فاستقلَّ عن الخليفة، وأعلن الحرب عليه، وسار لفتح الشام سنة ١٨٣١، فاحتل فلسطين، ولبنان، وسورية. وبدأ يتوغل في الأناضول، ولكن الخليفة أرسل جيشاً قوياً لمحاربته، وتحولت الدول الأوروبية إنجلترا وروسيا ودولتان من دول ألمانيا ضد محمد علي. ففي تموز سنة ١٨٤٠ عقدت إنجلترا مع روسيا واثنتين من الدول الألمانية ما يعرف بالتحالف الرباعي، وبموجبه تعهدت هذه الدول بأن تدافع عن وحدة أراضي الدولة العثمانية، وأن تكره محمد علي بقوة السلاح عند الحاجة على التخلي عن سورية. فكان هذا الموقف من الدول الأوروبية جاعلاً الموقف الدولي بجانب الخليفة، فساعده ذلك إلى جانب قتاله لمحمد علي على صَدّه وإجلائه عن سورية وفلسطين ولبنان، وعودته لمصر. ثم رضي أن يكون والياً تابعاً للخليفة.

إثارة النعرات القومية
والنزعات الاستقلالية

وهكذا استمرت محاولاتُ الدولِ الأوروبية ولا سيما إنجلترا وفرنسا وروسيا إزالة الخلافة الإسلامية من الوجود. إلا أن محاولاتها ضربَ الدولة من الخلف بحروب منظمة وجيوش ومعارك قد أخفقت، لا بالنسبة لقوة الدفاع الموجودة لدى الخليفة فحسب، بل بالدرجة الأولى بالنسبة للموقف الدولي، ولاختلاف الدول على اقتسام الغنائم.

أما المحاولات التي قامت بها هذه الدول الأوروبية في أوروبا في الصرب والمجر وبلغاريا واليونان وغيرها فقد نجحت، لأنها سارت فيها عن طريق إثارة النعرات القومية،

والنزعات الانفصالية التي يسمونها الاستقلال. ولذلك تبنت الدول الأوروبية هذا الأسلوب: أسلوب إثارة النعرات القومية، والنزعات الاستقلالية، أي الانفصالية، في جميع البلاد التي تظللها الراية الإسلامية، وتحكم من قبل خليفة المسلمين. وركزت على العرب وعلى الترك بشكل خاص. وبدأت السفارات الإنجليزية والفرنسية في استانبول، وفي أهم البلدان الإسلامية، تثير النعرات القومية، والنزعات الاستقلالية. وكانت أعمالها بارزة بشكل ظاهر في بغداد، ودمشق، وبيروت، والقاهرة، وجدة. واتخذت لها مركزين رئيسيين للقيام بهذه المهمة هما: استانبول لضرب الدولة في مركزها الرئيسي، وبيروت لضربها في الملحقات، وخاصة في البلاد التي يسكنها المسلمون الناطقون باللسان العربي.

دور مركز بيروت في العمل ضد الخلافة

أما بالنسبة لمركز بيروت باعتباره مركزَ كُفر لضرب الإسلام وضرب الدولة الإسلامية فقد وُضع له المخطط على أن يَعمل للمدى الطويل، وللنتائج البعيدة المدى. وأما بالنسبة لمركز استانبول فقد وُضع له المخطط للمدى القصير، على أن تكون نتائجه مُعَجّلة، وأن يكون أثرها بعيد المدى. ولذلك كان مركز بيروت سُمّاً ناقعاً قَتَّالاً، حَوَّل الآلاف من أبناء المسلمين إلى كفار، وحول العلاقات الإسلامية إجمالاً إلى علاقات تسير حسب أحكام الكفر، وكان أثره فظيعاً في ضرب الدولة أثناء اشتباكها مع الكفار في الحرب العالمية الأولى.

وقد بدأ الكفار الغربيون العمل السياسي في بيروت بعد انسحاب إبراهيم باشا من بلاد الشام مباشرة: ففي سنة ١٨٤٢ تشكلت لجنة لتأسيس جمعية علمية تحت رعاية الإرسالية الأمريكية وفق برنامجها. وقد سارت في طريقها مدة خمس سنوات حتى تمكنت في سنة ١٨٤٧ من تأسيس جمعية سَمّتها «جمعية الفنون والعلوم». وقد تولى رعايتها والسير فيها

عميلان نصرانيان من أخطر عملاء الإنجليز هما: «بطرس البستاني، وناصيف اليازجي» إلى جانب «الكولونيل تشرتشل» من الإنجليز و«إيلي سميث وكورنيلوس فان ديك من الأمريكان». وكانت أهداف هذه الجمعية في أول الأمر غامضة، ولكنها تظهر بمظهر نشر العلوم بين الكبار كما تنشر العلوم في المدارس بين الصغار، وحمل الكبار كما يحمل الصغار على تثقيفهم بالثقافة الغربية، وإعطائهم الأفكار الغربية، موجهين بتوجيه خاص. إلا أنه بالرغم من نشاط رجال هذه الجمعية وبذل جهودهم الجبارة فيها، فإنه لم ينتسب إليها خلال عامين سوى خمسين عضواً عاملاً من جميع بلاد الشام، كلهم من النصارى، وأكثرهم من سكان بيروت. ولم يدخل في الجمعية من المسلمين، ولا من الدروز، أي عضو مطلقاً.

فتأسست جمعية أخرى سنة ١٨٥٠ باسم «الجمعية الشرقية»، أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب اليسوعي الفرنسي «هنري دوبرونير». وكان أعضاؤها كلهم من النصارى.

ثم في سنة ١٨٥٧ تشكلت جمعية على أسلوب جديد روعي فيها أن لا يدخلها أحد من الأجانب مطلقاً، وجعل مؤسسوها كلهم من العرب، وبذلك أتيح لها أن تضم بين أعضائها بعض المسلمين، وبعض الدروز، أخذتهم بوصفهم عرباً، فانتسب إليها عدد كبير بلغ مئة وخمسين عضواً. وكان بين أعضاء إدارتها شخصيات بارزة من العرب، منهم «محمد أرسلان» من الدروز، و«حسين بيهم» من المسلمين و«إبراهيم اليازجي، وابن بطرس البستاني» من النصارى، وهذان هما اللذان كانا يتوليان رعاية الفكرة، والدأب على العمل من أجلها. وقد شجع نجاح هذه الجمعية الكفار على الخطوة المباشرة لإثارة النعرة القومية، والنزعة الاستقلالية،

مباشرة وليس عن طريق العلم، وبصورة علنية وليس عن طريق الدس والمداورة.

فتأسست سنة ١٨٧٥ في بيروت الجمعية السرية. وقد قام بتأسيسها خمسة شبان من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت، وكانوا كلهم من النصارى، وضموا إليهم عدداً قليلاً. وأخذت هذه الجمعية تركز نفسها على فكرة سياسية، وتأسست كحزب سياسي، وقامت على أساس فكرة القومية العربية. وتعتبر أول حزب سياسي قام في البلاد الإسلامية على أساس فكرة القومية العربية. وكانت تدعو للعرب والعروبة وللقومية، وتثير العداء للدولة العثمانية، وتسميها «التركية» وتعمل على فصل الدين عن الدولة، وجعل القومية العربية هي الأساس، وتحويل الولاء عن العقيدة الإسلامية بين المسلمين وجعله للقومية العربية وحدها. وكانت تصدر نشرات توزعها سراً، وكانت بعض نشراتهم تتضمن اتهام تركيا - حسب تعبيرهم - بأنها اغتصبت الخلافة من العرب، وأنها تجاوزت على الشريعة الإسلامية الغَرَّاء، وأنها فَرَّطت في الدين، مع أن القائمين بهذه الجمعية السرية والمتولّين أَمرها نصارى يحقدون على الإسلام. ثم بعد ذلك أخذت الحركات القومية تنتشر، والنعرة القومية تُبث. إلا أن المستوى الذي أنتجته أعمال الدول الأوروبية من مركز بيروت هو إيجاد جواسيس، والقيام بأعمال تخريبية للأفكار والنفوس، فكان منحط المستوى سياسياً وإن كان فظيع الأثر فكرياً.

دور مركز استانبول في العمل لضرب الخلافة

هذا بالنسبة إلى مركز بيروت، أما في مركز استانبول - وهو المركز الذي اتخذه الكفار الغربيون لضرب الدولة الإسلامية في عاصمتها وفي رجال الحكم فيها - فقد قاموا بأعمال كثيرة كان أهمها وأفظعها نتيجة هو إنشاء جمعية

(تركيا الفتاة)، أو (الاتحاد والترقي). فقد تأسست هذه الجمعية بادئ الأمر في باريس، وقد قام بتأسيسها الشبان الأتراك الذين تشبَّعوا بالأفكار الفرنسية، وأمعنوا في دراسة الثورة الفرنسية. وقد تأسست كجمعية سرية ثورية. وكان زعيم هذه الجماعة الثائرة «أحمد رضا بك». وكان من الشخصيات عند الناس، وكانت فكرته نقل الحضارة الغربية إلى بلاده تركيا. وقد أسست لها فروعاً أخرى في برلين، وسلانيك، واستانبول.

وكان مركز باريس منظماً تنظيماً دقيقاً، وكان برنامجه متطرفاً، ووسائل الدعاية التي يعتمد عليها قوية متينة. وكانت لهم جريدة باسم (الأنباء)، تهرب إلى استانبول مع البريد الأوروبي، فيتلقفها جماعة من الأتراك يتعهدون توزيعها سراً. وكانوا يصدرون نشرات سياسية تهرب بنفس الأسلوب. أما فرع برلين فكان مؤلفاً من المعتدلين، ومن وزراء الدولة السابقين، أو كبار موظفيها، أو ذوي المواهب السياسية. وكانوا يطلبون الإصلاح، وأن تنظم شؤون الدولة على نحو الحكم الألماني، ويقترحون توحيد الشعوب المتعددة التي تتكون منها الإمبراطورية العثمانية، وأن تؤلف ما بينها ما يشبه الحلف الألماني.

أما فرع سلانيك فكانت الأغلبية الساحقة من أعضائه من الضباط المتعلمين أصحاب النفوذ القوي في الجيش. وكانوا يُعِدّون العدة للثورة، وانضم إليهم بعض الشيوخ فازدادوا قوة على قوة، كما انضم إليهم صغار الموظفين أمثال طلعت الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزارة. إلا أنهم مع ذلك كانوا خاضعين للمركز في باريس ولا يخرجون عن رأيه. وكان مركز باريس يوجههم بالنظريات والآراء الغربية، ويبعث فيهم الميل إلى النضال والتفاني.

وكانت المحافل الماسونية وعلى الأخص المحفل الإيطالي الأكبر في سلانيك ترحب بأعمال هذه الجمعية،